أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النبأ

مكية، وهي إحدى وأربعون آية مع البسملة

إنها تسمَّى سورةَ "النبأ" لأن فيها ذكرَ نبأٍ عظيم. إنها تتحدث عن البعث بعد الموت والقرآن الكريم أو غلبة الإسلام، بل بالأحرى عن هذه القضايا الثلاث.

أما علاقتها بالسورة السابقة فتكمن في أن سورة "المُرسَلات" قد ركزت على يوم الفصل بشكل خاص حيث قال الله تعالى في أوائلها: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾(الآيات: ١٣-١٥). كذلك قال الله ﷻ فيها: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ﴾(الآية:٣٩). بينما يقول الله تعالى هنا في سورة النبأ: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً﴾(الآية:١٨). فثبت أن يوم الفصل هو الرابط الأساس والموضوع المشترَك بين السورتين حيث تحدثت السورة السابقة عن يوم الفصل في موضعين، بينما تناولته هذه السورة في موضع واحد.

إن سورة النبأ هي من أوائل السور المكية (فتح البيان). يعترف المستشرق الألماني الشهير البروفيسور نولدكه (Noldeke) بأن مضمون هذه السورة يدل على أن زمن نزولها مقارب لزمن نـــزول سورة المرسلات (تفسير القرآن للقسيس ويري WHERRY). وإن قوله هذا يمثّل ردًّا على أولئك المستشرقين الذين يزعمون أن القرآن الكريم ليس فيه ترتيب معين، وإنما وُضعت السور الطوال في أوله والسورُ القصار في آخره. (The Koran, by J M Rodwell p. 2)

إذًا، فقول "نولدكه" هذا دليل على أنه حيثما يفهم المستشرقون الأمر لا يجدون بدًّا من الاعتراف بوجود صلة رابطة بين مضامين شتى السور. لا شك أنهم لا يعترفون بأن القرآن كله كلام مرتب، ولكنهم لا يجدون مناصًا من الاعتراف بوجود رابط بين بعض سوره أحيانًا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

عَمَّ: أصلُه "عن ما" حيث إن: "الميم المفردة قد تكون اسم استفهام بعد حروف الجر كمثل إلامَ وبمَ وأصلها "ما" وحركتها الفتحة.... ويجب حذفُ ألفِ "ما" الاستفهامية إذا جُرّتْ وإبقاءُ الفتحة دليلاً عليها نحو: فيمَ وإلامَ وعلامَ وبمَ". (الأقرب)

يتساءلون: تساءَلَ القومُ: سأَل بعضُهم بعضًا. (الأقرب)

التفسير: للسؤال أغراض شتى، فحينًا يسأل المرءُ ليزداد علمًا، فمثلاً إذا كان لا يعلم الطريق إلى قرية أو مدينة يسأل شخصًا آخر ليدله عليه، أو إذا كان لا يعلم معنى كلمة يسأل غيره ليخبره به.

أو يتم السؤال على سبيل الاختبار، بمعنى أن السائل يعلم الجواب ولكنه يريد أن يعلم ما إذا كان صاحبه يعلمه أم لا. وهذا النوع من السؤال أيضًا يدل – بطريق غير مباشر – على جهل السائل، بمعنى أنه يعلم جواب سؤاله، ولكنه يجهل ما إذا كان المسؤول يعلمه أم لا.

وأحيانًا يتم السؤال على سبيل التعجب، فمثلا إذا أساء الولد إلى والده قال له: أتعلم من أنا؟ أي يجب أن يكون عندك من الفهم ما يجعلك تدرك أني أبوك وأن عليك أن تحترمني. أو يقول السيد لعبده أو المدير لعامله: أتعلم من أنا؟ ولا يعني

ذلك أن العبد أو العامل لا يعرفه، بل إنه يوجه إليه هذا السؤال على معرفته إياه. والحق أنه يوجه إليه السؤال تعجبًا، ومراده أنك تعلم هذه الحقيقة ومع ذلك تتقاعس عن تنفيذ أوامري، أو تختلف معي وتثير الأسئلة.

وحينًا يوجه السؤال على سبيل التعجب ويقصد به التعظيم والتفخيم أيضًا، والواقع أن عنصر التعجب يكون مخفيًا فيه وإن أُريد به التفخيم، ومثاله ما سبق آنفًا حيث يقول المرء للمسؤول: ألم تعلم من أنا؟ والمراد أنك تعلم مكانتي وعظمتي.

وحيث إن القرآن الكريم كلام الله تعالى فلا يمكن أن يكون المراد من سؤال الله تعالى ﴿عَمَّ يَتَساءَلُونَ﴾ أنه – والعياذ به – لا يعلم عما يسألون، أو أنه يشك في أن مخاطَبه يعلم ذلك أو لا يعلم، لذا فلا ينطبق هنا إلا معنى التعجب والتعظيم كما تؤكد ذلك الآيةُ التالية. فالمراد من قوله تعالى ﴿عَمَّ يَتَساءَلُونَ﴾ أننا نتعجب أنهم يسألون عن قضية جلية واضحة، دون أن يفحصوها ويُعملوا فكرهم فيها كما ينبغي. وكأن الله تعالى قد أكد بهذا السؤال من جهة على أهمية هذه القضية ووضوح حقائقها وبراهينها، ومن جهة أخرى استغرب من عقولهم بأنهم لا يزالون في ريب من هذه المسألة رغم وجود الأدلة على صحتها.

عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

النبأ: النبأُ: الخبرُ، وقال (أبو البقاء) في "الكليات": "النبأ والإنباء لم يَرِدْ في القرآن إلا لما له وقعٌ وشأنٌ عظيم". (الأقرب)

ويقول الإمام الراغب: "النبأُ خبرٌ ذو فائدة عظيمة، يحصُل به علمٌ أو غلبةُ ظنٍّ، ولا يقال للخبر في الأصل نبأٌ حتى يتضمن هذه الأشياءَ الثلاثة". (المفردات)

من المستحيل أن يُستعمل في كلام الله لفظٌ ما استعمالاً خاطئًا، ولذلك قال أبو البقاء لم يرد لفظ النبأ في القرآن إلا "لِما له وقعٌ وشأنٌ عظيم". والواقع أن كلمة "وقعٌ وشأن عظيم" تنطوي على نفس المفهوم الذي ذكره الإمام الراغب، حيث إن

لفظ "الوقع" يماثل "خبر ذو فائدة" ولفظ "عظيم" يماثل "فائدة عظيمة"، ولفظ "شأن" يماثل "يحصل به علمٌ وغلبةُ ظن"، حيث قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (الرحمن: ٣٠).

وبناءً على قولِ صاحب المفردات فإنه كلما استُعمل لفظ "النبأ" استعمالاً صحيحًا تضمن الأشياء الثلاثة المذكورة أعلاه، وقولِ أبي البقاء: "النبأ والإنباء لم يرد في القرآن إلا لما له وقعٌ وشأنٌ عظيم".. بناء على ذلك أقول ردًّا على غير المبايعين✪: إن زعمكم أن كل من يتلقّى الإلهام يمكن أن يسمى – لغةً – نبيًّا لزعمٌ باطل، ذلك أن النبي لا يعني – لغةً – من يتلقى الإلهام فحسب، بل إن النبي – لغةً – هو من ينـــزل عليه الوحي الذي يتضمن أشياء ثلاثة: الأول أنه ذو فائدة، والثاني أن فائدته عظيمة، والثالث أنه يحصل به علم أو غلبةُ ظنّ؛ كما أن هناك شرطًا آخر وهو أن ينـــزل عليه وحي الله بكثرة وغزارة؛ لأن لفظ النبي من صِيغ المبالغة. وكأننا عندما نسمي أحدًا نبي الله فنعني بذلك (أوّلاً): أنه يتلقى من الله أخبار الغيب بكثرة، و(ثانيًا) أن تلك الأخبار لا تكون ذات فائدة فحسب، بل فيها فائدة عظيمة، و(ثالثًا) أنها تحتوي على علم إضافي. ونظرًا إلى هذا المعنى، ليس بوسع غير المبايعين أبدًا أن يقدّموا مثال شخص واحد من الأمة يشترك مع المسيح الموعود عليه السلام في هذه الميزة، كما ليس بوسعهم أن يُثبتوا أن غير نبي يشترك مع النبي في هذه الصفات المميزة، ذلك لأن هذه الأمور لا توجد إلا في نبي.

التفسير: يمكن أن يُعتبر قوله تعالى ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ بدلاً من قوله تعالى ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾، والمعنى عن أي شيء يتساءلون؟ أيتساءلون عن النبأ العظيم الذي سنورد تفاصيله لاحقًا؟ وقد يكون جملة مستأنفة، بمعنى أنه تعالى سأل أوّلاً: عن أي شيء يتساءلون، ثم أجاب بنفسه وقال: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾. وهذا يؤكد أن قوله

✪ هم الذين انشقوا عن الجماعة الإسلامية الأحمدية التابعة للخلافة، رافضين البيعة على يد الخليفة الثاني رضي الله عنه عند انتخابه، وخرجوا من قاديان واتخذوا لهم مركزًا في مدينة لاهور، واشتهروا في أدبياتنا باسم الأحمديين اللاهوريين أو غير المبايعين. (المترجم)

تعالى ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ لم يكن راجعًا إلى جهل أو عدم علم، بل كان السائل يعلم الأمر المسؤول عنه؛ إذ أخبر بنفسه أنهم يسألون عن النبأ العظيم.

واللافت للنظر أن الله تعالى يقول هنا ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۞ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾، مع أني قد بينتُ آنفًا أن النبأ معناه "خبرٌ ذو فائدة عظيمة" عند الإمام الراغب، أو "ما له وقع وشأنٌ عظيم" عند أبي البقاء، مما يعني أن النبأ نفسه يتضمن معنى العظمة. ولكنا نجد من ناحية أخرى أن الله تعالى قد وصف النبأ بالعظمة فقال ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾.. بمعنى أنه خبر عظيم من بين الأخبار العظيمة أيضًا. ولو فسّرنا هذه الآية نظرًا إلى هذا المعنى الأساسي لكلمة "النبأ" لكان تقديرها كالآتي: أيتساءل هؤلاء عن ذلك الخبر الذي هو أعظم الأخبار العظيمة؟

أما ما هو هذا النبأ العظيم، فقد قال البعض إنه القرآن الكريم كما روي عن مجاهد. بينما قال غيره: إنه البعث بعد الموت كما روي عن قتادة وابن زيد (ابن كثير).

والحق أن سورة "المرسلات" لم تتحدث عن القرآن الكريم فحسب، بل عن غلبة القرآن أيضًا، فقد تحدثت عن القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾(الأعراف: ١٨٦)، بينما تحدثت عن غلبة القرآن في قوله تعالى ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ ۞ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾(المرسلات:٤٧-٤٨). كما تحدثت تلك السورة عن "يوم الفصل"، والمراد منه النبأ عن غلبة الإسلام. إذًا، فسورة المرسلات لا تتحدث عن القرآن فقط، بل تتحدث عن غلبة الإسلام أيضًا، وقد تناولت سورة النبأ أيضًا كلا الموضوعين بكل وضوح.

ولا يجدر أن يتساءل متسائل هنا: أيٌّ من المواضيع الثلاثة ينطبق هنا؛ أهو القرآن أو غلبة الإسلام أو البعث بعد الموت؟ ذلك أن للقرآن عدة بطون، حيث يبين أحيانًا مواضيع عديدة بذكر عبارة واحدة. ومثاله أن تكون فئة من القوم تتساءل عما إذا كان زيد قد ذهب إلى بلد كذا أم لا، بينما تتساءل فئة أخرى عما إذا كان زيد قد انتصر أم انهزم. فلو قلنا في الجواب: ذهب زيد إلى ذلك البلد وانتصر، لكان جوابًا للفئتين من السائلين. وبالمثل إن من الأدلة ما لا يأتي بنتيجة واحدة بل يأتي بنتائج عِدّة، فإذا سقناه دل على كل الأمور التي يمكن أن تثبت به. والحق أن البعث بعد

الموت يماثل البعث الروحاني الذي يتم في هذه الدنيا، وأحدهما دليل على الآخر. فإذا كان يصعد بالروح الإنسانية إلى مدارج عالية، فلا بد من أن يكون للروح غاية عظمى، ولا يصح القول إن الله تعالى سيُفني الروح الإنسانية بعد إيصاله إياها إلى الدرجات العُلى، ولن يكون لها عمل آخر بعد ذلك. وإذا كان للإنسان حياة بعد الموت فلا بد أن يتم إحياء روحه في الآخرة، لأن من الظلم أن يُلقي الله ﷻ الإنسان في المتاعب الدائمة ولا يجعل له سبيلاً لنيل نعمائه في الآخرة التي هي حياة خالدة أبدية. إذا كان الله تعالى سيهب لنا الحياة الخالدة بعد الموت فلا بد أن تكون في الآخرة أسباب أكثر للتمتع بتلك الحياة. وهذا يعني أن كلا الأمرين متلازمان، فإذا وُجد الأول فلا بد من الثاني، وإذا وُجد الثاني فلا بد من الأول.

وحيث إن القرآن الكريم يعلن أنه هو وحده يهب الآن الحياة الروحانية التي تتيسر لنا في هذه الدنيا، فقد اندرجت قضية صدق القرآن تلقائيًا مع القضيتين المذكورتين من قبل، بمعنى أن الدليل الذي يدل على وجود أسباب لإحياء الروح في الدنيا هو نفسه يؤكد صدق دعوى القرآن الكريم هذا أيضًا، إذ يعلن أنه وحده يهب الحياة الروحانية في هذا العصر. فترى أن القضايا الثلاث قد ثبتت بدليل واحد، إذ لو ثبت بدليل أن الحياة بعد الموت أمر يقين لا بد منه، ثبت به أيضًا أن الله تعالى قد خلق في هذه الدنيا أسبابًا لإحياء الروح، كما ثبت به أيضًا صدق دعوى القرآن بأنه الكتاب الوحيد الذي يهب الحياة الروحانية في هذا العصر، إذ لو ثبت أن الإنسان يمكن أن يبلغ في هذه الدنيا أسمى الدرجات الروحانية، لثبت أيضًا أن القرآن يهب هذه الدرجات إذ لا ينالها الآن فعلاً إلا الذين يؤمنون بالقرآن؛ كذلك إذا ثبت أن بوسع المرء نيل أسمى المراتب الروحانية بالعمل بالقرآن في هذه الدنيا، ثبت أيضًا أن هناك حياة بعد الموت، إذ لا يمكننا اعتبار هذه الدرجات العلى عبثًا. وبتعبير آخر، لو ثبت أن القرآن يهب المدارج الروحانية العالية لثبت أيضًا أن الله يهب مراتب روحانية عالية للذين يعملون بالقرآن، وبالتالي ثبت أنه لا بد من الحياة بعد الموت إذ من المستحيل أن يهب الله تعالى للإنسان مواهب وكفاءات عالية ثم

يفنيه قبل أن يتيح له الفرصة لإظهارها. إذًا، فهذه الأمور الثلاثة متلازمة، وإذا ثبت أحدها ثبتت كلها تلقائيًا.

باختصار، لو قلنا إن المراد من "النبأ العظيم" هو القرآن الكريم، وغلبة الإسلام والبعث بعد الموت، لم يؤد ذلك إلى أي شك وريب، بل الحق أن هذه الثلاثة كلها متلازمة، ذلك أن التعدُّد يؤدي إلى الشك أحيانًا وإلى الجزم أخرى، وهنا يفيد الجزم، لأن كلمة "النبأ العظيم" تحتوي على المعاني الثلاثة في الواقع، إذ إن الحياة بعد الموت أعظم الأخبار العظيمة. لا شك أن التنبؤ بولادة ولد عند شخص أو نشوب حرب في بلد ما خبرٌ هام، ولكنه ضئيل الشأن جدًّا إزاء الإعلان بأن الخَلق كلهم سيُحيَون ثانيةً ويُحضرون عند الله تعالى. فثبت أن لفظ "النبأ العظيم" ينطبق على القيامة كل الانطباق، كما ينطبق على القرآن الكريم أيضًا لأنه يعلن أنه جامع لكل المحاسن والمزايا بل شامل لصحف الأنبياء جميعًا، حيث قال الله تعالى ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾(البيّنة:٤). فإذا كانت صحف نوح نبأً، وإذا كانت صحف إبراهيم نبأً، وإذا كانت صحف موسى نبأً، وإذا كانت صحف عيسى نبأً، وإذا كان وحي "كرشنا" نبأً، وإذا كان وحي "رام تشندر" نبأً، فلا بد أن يكون الوحي الذي شمل كل هذه الصحف نبأً عظيمًا.

كما أن "النبأ العظيم" ينطبق على غلبة الإسلام، بل الحق أن غلبته أعظم من غلبة الأنبياء قاطبة وتحوي غلبتُه غلبتهم جميعًا. فمثلاً كان الطوفان آية على صدق نوح عليه السلام وبه صار غالبًا على قومه، ولكن ماذا كانت حصيلته النهائية؟ غرق قومه وحُرموا الإيمانَ به. أما قوم نبينا محمد ﷺ فتعرَّضوا للدمار أوّلاً ولكنهم آمنوا به في النهاية. وقد غلب موسى عليه السلام على أعدائه حين غرقوا في البحر، بينما أُغرق أعداء النبي ﷺ في البر نفسه بدلاً من البحر. ثم إن موسى عليه السلام وُعد بالأرض المقدسة ولكن لم يتحقق هذا الوعد في حياته، ووُعد نبينا ﷺ أيضًا بوعد مثله، ففتَح مكة في حياته. أما عيسى عليه السلام فتمثلت غلبته على أعدائه في أنه فر من أعدائه مهاجرًا إلى بلد آخر وصار في مأمن من اعتدائهم، بينما كتب الله تعالى لنبينا ﷺ أيضًا غلبة مماثلة حيث فرّ من عدوه وهاجر إلى مدينة أخرى ونجا هناك من عدوان العدو،

ولكن عيسى عليه السلام لم يستطع العودة إلى بلده و لم ينتصر على قومه، أما النبي ﷺ فعاد إلى وطنه مكة، وانتصر على قومه. باختصار، قد نال النبي ﷺ كل أنواع الغلبة التي نالها الأنبياء السابقون، بل شملته نصرة الله وتأييده أكثر منهم. فمثلاً صارت أمة المسيح عليه السلام غالبة بعد ثلاثة قرون من بعثته، أما النبي ﷺ فقد نال الغلبة على قومه في حياته. ثم إن أصحاب المسيح عليه السلام قد وهنوا و لم يتثبتوا في موطن تطلّبَ منهم التضحية، أما النبي ﷺ فقد وهبه الله تعالى صحابة ما وهنوا في موطن الحرب كأصحاب موسى، ولا ضعفوا كأصحاب عيسى الذين خذلوه حين تعرضت حياته للخطر. الحق أن الناس فئتان فيما يتعلق بالعواطف، فئة يستعدّون للتضحية في سبيل أمتهم، ولكن لا يستعدّون للتضحية من أجل قائدهم، وفئة يستعدّون للتضحية من أجل القائد كل حين، ولكنهم لا يتحلّون بروح التضحية في سبيل أمتهم، فحبُّهم لشخص القائد لا للأمة. وقد أعطى الله سبحانه وتعالى نبينا ﷺ صحابة كانت قلوبهم مفعمة بالعواطف بنوعيها، فلم يتقاعسوا عن التضحية من أجل الأمة كما تقاعس أصحاب موسى عليه السلام، بل إذا تطلب الأمر التضحية لأمتهم انبروا في الميدان، وإذا تطلب الموقف الدفاع عن النبي ﷺ خاضوا غمار الأخطار مؤكدين حبهم الذي يكنّونه للنبي ﷺ، و لم يتصرفوا كالجبناء كما فعل حواريو المسيح عليه السلام. لما حاصر أهل مكة بيتَ النبي ﷺ ليلاً لاغتياله وأراد أن يخرج مهاجرًا أمر عليًّا رضي الله عنه أن ينام في فراشه، ففعل (السيرة لابن هشام، خروج النبي ﷺ واستخلافه عليًّا على فراشه)، وهكذا أكد رضي الله عنه بأن أصحاب النبي ﷺ كانوا مستعدين لأن يُقتَلوا مكانه ﷺ لو تطلب الأمر. فثبت من هنا أن أمة النبي ﷺ قد سبقت أمم الأنبياء السابقين في حبهم لأمتهم وحبهم لقائدهم؛ وبالتالي كانت غلبته ﷺ – أي غلبة الإسلام – نبأً عظيمًا، كما كان كتابه ﷺ نبأً عظيمًا كذلك، لكون القرآن أعظم وأروع من الصحف السابقة، كما كانت القيامة نبأً عظيمًا لأنها أهم الأخبار وأعظمها.

ٱلَّذِى هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

مختلفون: اختلف القوم: ضدُّ اتفقوا. (الأقرب)

التفسير: كما ترى فإن عنصر التفخيم والتعجب قد برز هنا أكثر من ذي قبل، ذلك لأن الله تعالى قد اعتبر هذا الخبر نبأً عظيمًا من قبل، أما الآن فيقول ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾، مع أن المفروض أن لا يختلفوا في النبأ، أما النبأ العظيم فالاختلاف فيه لا يجوز مطلقًا، ولكنهم قد بلغ بهم السخف أنهم يختلفون فيه أيضًا.

لقد قال البعض إن قوله تعالى ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ دليل على أن لفظ ﴿النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ لم يرد هنا بمعنى البعث بعد الموت ولا القرآن الكريم، إذ يخبر الله تعالى هنا أن الكافرين مختلفون في هذا الأمر، والحق أنهم كانوا ينكرون البعث بعد الموت وما آمنوا بحياة أخرى أبدًا، فكيف يمكن أن يختلفوا في عقيدة كانوا ينكرونها أصلاً. كما أن "النبأ العظيم" لا يعني القرآن الكريم أيضًا، لأنهم كانوا كافرين به أصلاً.

الواقع أنه اعتراضٌ باطل، إذ لم يكن كل الكافرين ينكرون البعث بعد الموت، إنما كانوا مختلفين فيه، وإن كانوا يرون أن البعث سيتم بشكل مغاير لما يذكره القرآن، ومن أجل ذلك كانت العرب تزعم أن روح القتيل الذي لم يُدرَكْ ثأره تظل تصرخ بشكل بومة (لسان العرب، تحت: هوم). فلو أنهم كانوا منكرين للحياة بعد الموت أصلاً لما اعتقدوا هذا الاعتقاد. فثبت أنهم ما كانوا على بيّنة وبصيرة حول الحياة الآخرة، بل كانوا مختلفين فيها.

أما الاعتراض على القرآن الكريم فأيضًا لا يصح عندي، ذلك لأن الكافرين كانوا مختلفين في القرآن أيضًا رغم إنكارهم إياه، إذ كان بعضهم يسمّونه سحرًا، وبعضهم كذبًا وافتراء، وبعضهم ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾(الأنفال:٣٢). والبديهي أن الذين سمّوا القرآن الكريم أساطير الأولين لم يعتبروه كذبًا وافتراء، لأنهم لو اعتبروه كذلك لعُدّ آباؤهم الأولون كذابين إذ كان القرآن أساطير آبائهم في زعمهم، ولكن هذا ليس بصحيح؛ فقولهم ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ نفسه دليل على أن بعضهم

كانوا لا يعترضون على القرآن الكريم باعتباره كلامًا مفترى، بل كانوا يقولون إن محمدًا ﷺ قد نقله عن آبائهم الأولين، فلا يمكن أن يكون وحيًا من الله تعالى. إذًا، فوجود بعض العرب الذين اعتبروا القرآن الكريم أساطير الأولين يدل على أنهم كانوا فيه مختلفين. كما وُجد بينهم من سموا القرآن سحرًا، وكذلك من اعتبروه افتراء؛ مما يدل على أن قولنا إن القرآن الكريم هو "النَّبَأ الْعَظِيم" لا يتنافى مع قول الله تعالى: ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ بل منسجم معه تمامًا.

أما الأمر الثالث، أعني غلبة الإسلام، فقد يقول قائل: متى كان الكافرون مختلفين في غلبة الإسلام؟

فليكن معلومًا أن الكافرين كانوا بالفعل مختلفين في أمر غلبة الإسلام لإدراكهم أن المسلمين يتحلون بروح تجعلهم غالبين عليهم في نهاية المطاف. والحق أن معارضتهم الشديدة للإسلام ومحاولتهم المستميتة للقضاء عليه نفسها دليل على أنهم كانوا يخشون غلبته، ويدركون أن المسلمين مزودون بما يجعلهم غالبين عليهم. وهذه هي علامة النبي الصادق، أعني أن معارضيه يخافون منذ أول يوم من دعواه أن أتباعه سيقضون عليهم ويكسرون شوكتهم في يوم من الأيام. إن المعارضين يدّعون من ناحية أنهم سيدمرون أتباع النبي ويمحون أثرهم من العالم، ومن ناحية تتوجس قلوبهم خوفًا بأن هذا الشخص سيقضي عليهم، ولذلك يعارضونه معارضة شديدة مع علمهم أنه شخص واحد، ليس معه أعوان وأنصار، ولا قوة ولا منعة، ولا أموال ولا أسباب. إن النبي ينبري وحده ليتحدى الدنيا كلها وهو لا يملك حيلة ولا قوة، فتعارضه الدنيا كلها ولا تدخر وسعًا في تدميره ومحو أثره وإفشاله في مهمته، ذلك لأنها توقن في نفسها أن هذا الشخص الوحيد عديم الحيلة مزود بكفاءات مدهشة للرقي وسيقضي عليهم ويهزمهم في يوم من الأيام. إننا نرى في هذا العصر أيضًا أنه بعد بعثة المسيح الموعود عليه السلام خرج كثير من المتنبئين قائلين إنهم مبعوثون من عند الله تعالى، ولكن لم يلتفت إليهم أحد إطلاقًا، فكان هؤلاء المدّعون يتضايقون من عدم تعرض الناس لهم، بل كان بعضهم يسبّ جماعتنا بأننا لا نرد على دعواه وأقاويله. فمع أن هؤلاء المتنبئين يتمنون أن يلتفت الناس إليهم

ولو معارضين إلا أنهم لا يعيرونهم أدنى اهتمام إذ لا يجدون فيهم ما يخشونه، حتى يظنوا أنهم سيصبحون غالبين عليهم في النهاية. إن الناس يسمعون دعاويهم ويمرّون بهم ضاحكين غير معارضين لهم، أو لا يعارضهم عدد كاف منهم. قد يتفوه بعضهم ضد المدعي، بينما يدرك الجميع على العموم أن لا داعي للتعرض له، لأنه سيهلَك بنفسه ويبيد.

إذًا، فقوله تعالى ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ يشير إلى غلبة الإسلام أيضًا، حيث بين الله تعالى أن ذوي العقل من الكافرين يدركون أن الإسلام غالب لا محالة في النهاية. إذًا، فعامة الكفار يتأثرون بما يسمعون من علمائهم فيظنون أنهم سينجحون في القضاء على المؤمنين، ولكن علماءهم يدركون أنهم سينهزمون وأن الإسلام سينتصر في نهاية المطاف، بل إنهم يرون آثار هزيمتهم منذ البداية. وهذا يعني أنهم يقرّون منذ أول يوم بغلبة الإسلام مدركين أن لا قِبل لهم بهذا الدين. وفي هذا العصر أيضًا نجد أن الناس يستيقنون في قلوبهم بتفوق الجماعة الإسلامية الأحمدية ويخافون على مصيرهم إذا استمرت الجماعة في التقدم على هذا المنوال، ولذلك لا يألون وسعًا في معارضتها، ظانين أنهم سيتمكنون من القضاء عليها؛ إذ من المحال أن تزدهر جماعة في ظل هذه المعارضة الشديدة.

إذًا، فلو فسّرنا "النبأ العظيم" بمعنى غلبة الإسلام فقوله تعالى ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ لا يعني أنهم يختلفون فيما بينهم بهذا الشأن بل يعني اختلاف حالتهم من وقت إلى آخر، بمعنى أن الاختلاف عندها سيُعتبر إشارةً إلى ما يوجد بين عامة الكفار وعلمائهم وزعمائهم من اختلاف في التفكير حيث يظن العامة أن المسلمين سيُبادون بينما يرى علماؤهم وزعماؤهم عكس ذلك، أو المعنى أن علماءهم وزعماءهم لا يكونون في حالة واحدة، فيظنون تارة أنهم سيقضون على المسلمين، وتارة أخرى يرون أنهم لن يتمكنوا من القضاء عليهم بل سيهلكون بأنفسهم في هذه المعركة. عندما ينظرون إلى محاسن المسلمين وصفاتهم الحميدة يدركون أنهم سيلقون الهزيمة على أيدي المسلمين، وعندما ينظرون إلى حزبهم وقوتهم يظنون أنهم سيقضون على المسلمين.

هذا، وقد يكون قوله تعالى ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ إشارة إلى الاختلاف الموجود بين المسلمين والكافرين، وهذا الاختلاف أيضًا يخص القضايا الثلاث: بمعنى أن المؤمنين يعارضون الكافرين حول البعث بعد الموت وغلبة القرآن وغلبة الإسلام.

كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

كَلَّا: حرفٌ معناه الردع والزجر... وفي "الكليات": وقد تجيء بعد الطلب لنفي إجابة الطلب كقولك لمن قال لك افعلْ كذا: كلا.. أي لا يُجاب إلى ذلك؛ وقد جاء بمعنى حقًّا نحو: ﴿كَلَّا إنّ الإنسان ليَطغَى﴾. (الأقرب)

سيعلمون: السين هنا تفيد التوكيد.

التفسير: المراد من قوله تعالى ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ أنهم يعلمون حتمًا. وإذا أخذنا يوم القيامة في الحسبان، فالمراد أنه سيكشف عليهم يوم القيامة بطلان أفكارهم وفداحة خطئهم. أما نظرًا إلى القرآن الكريم فالمراد أنه سيأتي يوم يتجلى فيه صدق القرآن الكريم عليهم. أما نظرًا إلى غلبة الإسلام فالمراد أنه سيصبح غالبًا في نهاية المطاف فيدركون أنهم قد ارتكبوا خطأ فادحًا بمعارضة الإسلام.

وقد ذكر الله تعالى في الآيات التالية الدليل على صدق هذه الدعوى، وهذا الدليل ينسجم مع القضايا الثلاث المذكورة، بمعنى أن هذا الدليل لا يؤكد وجود القيامة فحسب، بل يؤكد صدق القرآن الكريم وغلبة الإسلام أيضًا.

أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ﴿٧﴾

شرح الكلمات:

مِهادًا: المِهاد: الفِراش؛ الأرض. (الأقرب) وتسمَّى الأرض مهادًا لاتصافها بمزايا المِهاد.

التفسير: ماذا يفعل الإنسان بالفراش؟ إنه يستلقي عليه وينام طلبًا للراحة، ولذلك قال الله تعالى ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾.. أي تجدون فيها أنواع الراحة والسهولة، فينبغي أن تفكروا في هذه الظاهرة.

وسوف أقوم بتفسير هذه الآية مع الآية اللاحقة لاتحادهما في المعنى.

وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾

شرح الكلمات:

أوتادًا: الأوتاد جمعُ الوتد وهو ما رُزَّ في الأرض أو الحائط من خشب. وأوتاد الأرض جبالُها؛ وأوتاد البلاد رؤساؤها؛ وأوتاد الفم: أسنانُه. (الأقرب)

وقد سُمِّيت الأسنان أوتاد الفم لأنها تحافظ على نظام الفم شأن الرؤساء الذين يحافظون على نظام البلاد، كما أن الأسنان تساعد على الأكل وتحافظ على جمال الوجه. وتسمى الجبال أوتاد الأرض لأنها سبب لزينتها وزخرفتها وقوتها ومتانتها. وهذا هو غرض الوتد لأنه يقوّي الشيء ويسانده. مثلاً أنت تَغرِز الوتد في الحائط لتُعلِّق عليه شيئًا فيصبح سندًا له. كذلك تغرز الوتد في الأرض لتربط به الحيوان من فرس أو غيرها، أو تربط به أطناب الخيمة فتنصبها. وهذا يعني أن غرض الوتد حماية الشيء ومساندته، فالمراد من قوله تعالى ﴿وَالْجِبَالَ أَوتَادًا﴾ أنها سند للأرض وتمنعها من حركة تضّرها، والحق أن هذين هما الغرضان الأساسيان في الجبال.

التفسير: فيما يتعلق بمنافع الجبال فقد أثبتت العلوم المعاصرة أن الجبال هي التي حالت دون الزلازل التي كانت تهزّ الأرض بدون انقطاع في البداية، ذلك لأن باطن الأرض نار تلتهب على الدوام، وفي البداية كانت قشرة الأرض غير سميكة، فكلما جاشت النار في باطن الأرض بدأت الحمم تتدفق خارجها، ولم تزل هذه الظاهرة تتكرر حتى تكونت جبال كبيرة على سطح الأرض. وعندما هدأ جيشان باطن الأرض بردت قشرتها وأصبحت سميكة وصارت صالحة للعيش عليها. فليست الجبال إلا سببًا لمنع الأرض من حركتها الضارة. وكما أن الوتد يربط الحصان ولا

يدعه يذهب وينفلت، كذلك توقفت الحركة الضارة للأرض وانتهت ظاهرة الزلازل الكثيرة.

كما أن الجبال سند للناس بحيث يمكننا القول إن جميع أقطار العالم معلقة بسند الجبال. تنـــزل على الجبال الثلوج التي فيها منافع عظيمة للناس. عندما تذوب الثلوج تجري في الأرض الجداول والأنهار التي تُشَقُّ منها القنوات التي تسقي البلد كله. كما أن الثلوج تؤدي إلى تدفق العيون في الجبال التي تروي الناس. وهذا يعني أن الجبال تحقق الهدفين: إنها تمنع الأرض من الحركة الضارة، كما أنها تصبح سندًا لجميع البلدان حيث تمد الناس بالماء الذي يروي الأرض وتستمر به حياتهم.

وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾

شرح الكلمات:

أزواجًا: الأزواج مفردها زوج وهو: البعلُ؛ الزوجةُ؛ كلُّ واحد معه آخر مِن جنسه؛ الصنفُ من كل شيء. (الأقرب)

التفسير: يقول الله تعالى من ناحية جعلنا لكم الأرض التي تعمل لكم كالفِراش، كما جعلنا لكم الجبال التي تعمل لكم كالسند حيث تمنع الأرضَ من حركة تضركم، ومن ناحية أخرى ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾. ويُطلَق الزوج على الذكر والأنثى، حيث يقول الرجل: هي زوجي أو زوجتي، وتقول المرأة: هو زوجي. فالمراد من قوله تعالى ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أننا خلقناكم ذكرًا وأنثى.

إذًا، فالله تعالى يذكّر العباد أنه خلق لهم الأرض فراشًا، فكما أنهم يرجعون إلى فراشهم طلبًا للراحة كذلك يرجعون إلى الأرض كلما عنّتْ لهم حاجة أو مَسَّهم ضرر، فيجدون فيها كل ما يحتاجون إليه. فتمدّهم الأرض بكل ما يحتاجون إليه من مأكل ومشرب وملبس. فما من حاجة للناس إلا ويسدّها الله تعالى من خلال الأرض. ثم إن الأرض تهيئ الراحة للإنسان كما يهيئ السرير الراحة لجسم الإنسان.

ثم جعل الله تعالى الجبال التي هي سند وقوة للأرض. الواقع أن الأرض كان بها نقائص سدَّها الله تعالى من خلال الجبال، ولولاها افتقرت الأرض إلى منافع كثيرة. فمن أكبر فوائد الجبال أنها تدّخر المياه التي هي سبب حياة الأرض، حيث تقع الثلوج على قمم الجبال، ثم تذوب لتمدّ الأرض بالمياه طوال السنة. كما تنبت على الجبال أنواع الأعشاب والعقاقير التي تنفع الناس. عندما يهيئ الإنسان الأرض ويعمرها للعيش عليها لا يبالي بما فيها من أعشاب نافعة، بل يتلفها بلا هوادة، فكلما احتاج إلى أرض للعيش قطع الشجر واستأصل الأعشاب. كان على الإنسان أن يبني البيوت ويشق الطرق والشوارع ويهيئ المزارع، فكان عليه أن يمهّد الأرض لذلك أولاً، ومن عادته أنه يقوم بتصفية الأرض كلية من كل نبات باعتباره لغوًا لا فائدة فيه، مع أن كثيرًا من هذه النباتات نافعة له جدًّا، وفيها شفاء له من شتى الأمراض. فلو كانت الأرض سهولاً فقط لقطع الإنسان كل نبات وعشب مفيد أيضًا، وسدًّا لهذا النقص جعل الله تعالى في الأرض جبالاً، فادّخر فيها المياه على شكل ثلوج، كما أنبت فيها شتى النباتات والأعشاب التي هي نافعة للناس والتي لو كانت في السهول لقطعوها وأتلفوها، ولكنها تظل محفوظة في الجبال؛ وهكذا تمثّل الجبال سندًا للأرض. إذًا، فالله تعالى قد جعل في الأرض، من ناحية، فوائد كثيرة يمكن أن نقول أن لا نهاية لها نظرًا لما في الأرض من قدرات وكفاءات، ومن ناحية أخرى خلق فيها الجبال التي تصبح بها منافع الأرض دائمةً بالفعل. فالأرض نافعة والجبال أيضًا ذات فوائد، والفرق أن الجبال تديم منافع الأرض.

وبعد ذكر هذه النعم العظيمة قال الله تعالى ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾.. أي جعلكم ذَكرًا وأنثى حتى يستمر نسلكم. وكأن الله تعالى يقول أليس عجيبًا أننا خلقنا الأرض التي تمدكم بالغذاء والماء واللباس والسكن من جهة، وخلقنا لكم الجبال التي جعلت المنافع الأرضية دائمة من جهة أخرى، وجعلناكم ذَكرًا وأنثى ليستمر نسلكم دائمًا وتنتفعوا من نعمنا على الدوام من ناحية ثالثة، ولكنكم تقولون عن كل هذه الأشياء التي تخرج عن حد الإحصاء أننا خلقناها عبثًا وليس وراء خلقها حكمة ولا غاية.

ومن معاني الزوج الصنفُ من كل شيء، وعليه فيعني قوله تعالى ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أننا خلقناكم أصنافًا.. أي جعلنا لكم طبائع شتى وأمزجة مختلفة، فمنكم من يرغب في الرسم، ومنكم من يميل إلى النجارة، ومنكم من يحب العلوم (science)، ومنكم من يفضّل الرياضيات، ومنكم من يؤثر دراسة التاريخ. فقد جعلنا الناس أقسامًا شتى، ولو خُلقوا بطبيعة واحدة، لساروا كلهم في جهة واحدة ولم يحرزوا أي تقدم. ولكن الله تعالى قد جعل العقل الإنساني ذا مواهب مختلفة وفتح أمامه مجالات شتى للتقدم والرقي بحيث يختار كل إنسان مجالاً ينسجم مع مزاجه وطبيعته، فمن الناس من يشتغل بالدنيا، ومنهم من يشتغل بالدين، ومنهم من يتوجه إلى العلوم، ومنهم من يتقدم في علم الأخلاق، ومنهم من يسبق في الهندسة، ومنهم من يرغب في التاريخ، وهكذا يسعى الجميع في مجاله بحسب فطرته ومزاجه. وهذا التنوع والاختلاف دليل على أن الله تعالى قد خلق في الإنسان رغبة في البحث عن شيء لا يراه، وجعل فيه غليلاً للفوز بذلك الشيء الخفي غير المرئي. وبحثًا عن تلك الضالة المنشودة يتوجه الناس إلى جهات شتى. فتجري شتى الطبائع الإنسانية في طرق مختلفة حسب مزاجها كما يجري الماء المهراق إلى الأسفل. أو مثله كمثل أهل بيت يفقدون ولدًا لهم، فيخرجون بحثًا عنه في جهات شتى، فيجري بعضهم إلى الشرق وبعضهم إلى الغرب وبعضهم إلى الجنوب وبعضهم إلى الشمال، بينما يكون هدف الجميع واحدًا وهو البحث عن الولد. فتجري الطبائع البشرية في جهات شتى وطرائق مختلفة، مما يدل على أن هناك شيئًا تشعر الفطرة الإنسانية بضرورة العثور عليه، ولكنها لا تعرف مكانه فتجري في جهات شتى بحثًا عنه؛ وهذا دليل على أن الفطرة الإنسانية تبحث عن ضالتها التي ليس عندها علم ذاتي بمكانها، ولذلك تبحث عنها في مختلف الجهات، ولا تزال في بحثها حتى ينـــزل الله تعالى وحيه ويدلّها على ضالّتها المنشودة، وعندها ينعم الإنسان بالسكينة والطمأنينة ويدرك أنه قد نال غايته التي كان يسعى لها والتي من أجلها قد جعل الله تعالى للناس طبائع مختلفة ومواهب متنوعة.

إذًا، فخلقُ الأرض والجبال، وتنوُّعُ الطبائع البشرية وتوجُّهُ الناس ذوي المواهب المتنوعة إلى جهات شتى بحثًا عن مقاصدهم لدليلٌ على أن للإنسان غاية عظيمة يجب أن يسعى لها. إن هذا البحث أو الغليل الموجود في فطرة الإنسان يدل على ضرورة الوحي أولاً، ويؤكد ضرورة البعث بعد الموت ثانيا، ويدل على غلبة الوحي الإلهي بعد نـــزوله ثالثا؛ إذ لو لم يصبح الوحي غالبًا ما كانت هناك فائدة في نـــزوله أصلاً.

ملخص القول إن الله تعالى قد دلل – بخلق ملايين النعم والخيرات التي لا تعد ولا تحصى على الأرض التي يعيش عليها الإنسان، ثم بخلق الجبال وجعلِ أسباب رزق الإنسان وتقدُّمه ورقيِّه دائمة الصبغة، ثم بخلق الناس بطبائع متعددة ليطوّروا، بحسب أمزجتهم المختلفة، قدراتِ الأرض وخيراتها وينتفعوا بها، ثم بخلق الإنسان ذكرًا وأنثى لاستمرار نسله – على أن الإنسان قد خُلق لرقي غير محدود ولحياة خالدة، وإذا ثبت ذلك فلا بد من الاعتراف أيضًا أنه لا بد للإنسان بعد موته من حياة أبدية في عالم آخر، وبالتالي لا بد أن يكون هناك هديٌ يعمل به لنيل الحياة الأبدية، كما لا بد أن يكون هناك ضمان لنجاح الذين يعملون بذلك الهدي، وإلا فإن خلق العالم كله يصبح عبثًا.

وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿١٠﴾

شرح الكلمات:

سُباتًا: أصلُ السبت القطعُ، ومنه: سَبَتَ السَّيْرَ (أي الجِلْدَ): قَطَعَه، وسَبَتَ شَعْرَه: حَلَقَه؛ وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾.. أي قَطْعًا للعمل. (المفردات)

ويسمى يومُ السبتِ سبتًا لأن اليهود يتركون العملَ فيه.

والسُّباتُ: الدهرُ؛ الداهيةُ من الرجال؛ النومُ؛ وقيل خِفَّتُه، وقيل ابتداؤه في الرأس حتى يبلغ القلبَ؛ وقيل أصله الراحةُ. (الأقرب)

التفسير: يقول الله تعالى هنا ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾.. وهذا رد على من قد يقول: ما الحاجة إلى أن يُهزَم الكفر بيد الإسلام مرة أخرى وقد سبق أن جُعل مغلوبًا في عصر آدم ونوح مثلاً؟ فيجيب الله تعالى ويقول ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾.. أي ألم تروا أن هناك وقتًا لليقظة ووقتًا للنوم في حياتكم العادية، كذلك تتناوب فترات الصحوة والنوم في حياة الشعوب دائمًا، ليستعيد الناس قوى جديدة ويهبّوا ويهزموا الكفر ثانية. إن الناس لا يزالون يعملون في سبيل الدين فترة طويلة، ثم يصيبهم الكسل والتعب، فيرغبون عن الدين وتنحصر رغباتهم في الدنيا فقط، فيتركهم الله وشأنهم فيميلون إلى الفساد، ثم يتغمدهم الله تعالى بفضله مرة أخرى، فتطلع لهدايتهم شمس روحانية جديدة.

وحيث إن الله تعالى قد ذكر هنا النوم مع السبات فقال ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ فلا يعني السبات هنا معناه المعروف أي النوم، بل لا بد من تفسيره بمعنى آخر وهو الراحة، فالتقدير: وجعلنا نومكم راحة.

ومن معاني السبات الدهر، فعليه يمكن تفسير الآية أيضًا كالآتي: وجعلنا نومكم دهرًا.. أي جعلنا زمن نومكم طويلاً. وعليه فيعني النوم إذًا، ذلك الزمن الذي لا تطلع فيه الشمس الروحانية على قوم، بل يغطّون في الغفلة.. وبتعبير آخر عندما تركن أمة من الأمم إلى النوم الروحاني ينامون فترة طويلة.

وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١١﴾

شرح الكلمات:

لباسًا: قال صاحب المفردات: "وجُعِلَ اللباس لكل ما يغطّي الإنسانَ عن قبيح".

وعليه فقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾.. يعني أننا جعلنا الليل ليغطي به عوراتكم وعيوبكم، ولهذا السبب سُمّي الليل هنا لباسًا، فإن كل ما يستر العيوب يسمى لباسًا في العربية كما قال الله تعالى في موضع آخر من القرآن الكريم ﴿لِبَاسُ التَّقْوَى﴾ (الأعراف:٢٧)، فقد سمى التقوى لباسًا لأنه يستر عورات الإنسان.

وورد في أقرب الموارد: "اللباس الاختلاطُ والاجتماع، يقال: بينهم لباس.. أي اختلاط واجتماع". وجاء في لسان العرب: "لباسُ كل شيء: غِشاؤه".

التفسير: لولا الليل لظل الإنسان ساهرًا كل حين وأصابه الجنون في بضعة أيام، ولكن هذا النقص في الإنسان يظل في الخفاء ولا ينكشف بسبب الليل، إذ جعله الله تعالى لباسًا له، فيغطي على عيبه هذا أي أنه محدود القوى.

ويعمل الليل لباسًا للإنسان من حيث إن عيوبه الصادرة وقت النوم بالليل لا تنكشف على الآخرين لكونهم أيضًا نيامًا في ذلك الوقت، ولكنه لو نام المرء وقت النهار اطلع الآخرون على عيوبه هذه. ذلك أن الإنسان يكون أثناء نومه في أوضاع غريبة بعضها قبيحة جدًّا بحيث لو رآها أحد لكرهها أشد الكراهية. فمثلاً قد يكون المرء ذا مكانة مرموقة بين الناس ولكن فمه ينفتح خلال النوم، فلو نام بالنهار وقعت الذباب على فمه، ولكنه لو نام بالليل ظل عيبه هذا مستورًا عن أعين الناس. وبعضهم يغطّ أثناء النوم عاليًا، وبعضهم يضطجع ضجعة منفّرة جدًّا، فبعضهم يضطجع كالقط وبعضهم كالسمك؛ ولذلك كله قال الله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾.. أي أن الليل هو وقت النوم عادةً، والذين ينامون بالليل لا تنكشف عيوبهم الجسدية للناس، أما لو نام الناس عادة وقت النهار لانكشفت للآخرين عيوبهم المتعلقة بالنوم، ولكنها تظل مخفية عن الآخرين لنومهم بالليل الذي يغطّيها.

والليل الروحاني أيضًا يعمل عمل اللباس كالليل المادي، ذلك لأن القوم كلهم يكونون أمواتًا من الناحية الروحانية ولا أحد يعرف عيوب صاحبه، وكما يقول المثل إن الجميع في الحمّام عراة، كذلك يكون أهل ذلك العصر كلهم عراة من الناحية الروحانية. إن كل إنسان منهم يصبح آثمًا يرتكب المعاصي والمساوئ، فلا يستطيع أن يرى سيئات الآخرين. فكان الجميع واقعين في الشرك والوثنية في زمن الجاهلية قبل ظهور الإسلام مثلاً، والفرق الوحيد أن بعضهم كان مشركًا كبيرًا وبعضهم مشركًا صغيرًا، ومع أنهم كلهم كانوا منغمسين في الشرك إلا أنه لا أحد منهم كان يشير إلى هذا العيب الموجود في صاحبه. ولكن عندما يبعث الله نبيًّا من

عنده ويأتي بشمسه الروحانية تتكاشف للناس عيوبهم، فيقولون إن فلانًا مصاب بعيب كذا، وفلانًا بنقص كذا، أما قبل ذلك فيكون الشعب كله في سبات فلا يستطيع أحد رؤية عيب صاحبه. ومثاله في هذا العصر ما حصل بأهل أوروبا حيث يرقصون عراةً ولا أحد منهم يستنكر ذلك لأنه قد خيم عليهم ليل روحاني، فلا يرون في ظلمته هذه النقائص والعيوب، بل إن أكبر إنسان فيهم أيضًا يرى هذه النقائص ويمرّ بها مرّ الكرام دون أن يفكّر في إبداء الكراهية نحوها. ولكن عندما يُبعث نبي من عند الله تعالى يخجل الناس من تلك المساوئ ويستنكرونها.

ثم إن اللباس زينة، والواقع أن الليل هو الزينة للعاملين الكادحين أثناء النهار. من عادة العرب أن كل واحد منهم، مهما كان فقيرا، يغسل ثيابه يوميًا، أما الأثرياء منهم فيلبسون بالنهار غير ما يلبسونه بالليل، ذلك لأن الثياب تتسخ نتيجة العمل بالنهار، فلا يستطيعون ارتداء الثياب الجميلة وقت النهار، بل يلبسونها وقت الليل حين يفرغون من العمل ويجلسون للراحة. ولو زرت البلدان الأوروبية لوجدت أن الرجل الثري ذا الراتب العالي يعمل في ثوب عادي وقت النهار، ولكنه بعد فراغه من العمل عند العصر تقريبًا يستحم ويلبس ثوبًا نظيفًا جميلاً ويجلس مع أهله وأولاده.

وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ﴿١٢﴾

شرح الكلمات:

معاشًا: عاشَ يعيش معاشًا: صار ذا حياة.... وقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾.. أي مُلتمَسًا للعيش. (الأقرب)

لقد بين الله تعالى هنا أمرين: أحدهما أننا جعلنا النهار ذا حياة، بمعنى أن النهار مَظْهَرٌ للحياة فيبدو كأنه شيء حي، والثاني أننا جعلنا النهار سببًا للعيش، أي أن الناس يبحثون فيه عن أسباب العيش.

ويمكن اعتبار ﴿معاشًا﴾ مصدرًا بمعنى اسم الفاعل على سبيل المبالغة، والمراد أن النهار وثيق الصلة بالمعاش بحيث يجوز القول إنه في حد ذاته معاش، كقولهم: زيدٌ عدلٌ.. أي أنه شديد التمسك بالعدل بحيث يمكن تسميته عدلاً متجسدًا. ومثاله في القرآن الكريم قول الله تعالى ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾(العنكبوت:٦٥)، فقد جاءت كلمة ﴿الحيوان﴾ هنا على سبيل المبالغة والمعنى أن الدار الآخرة هي الحياة الحقيقية. فمع أن الدار الآخرة اسم مكان، والمكان لا يكون ذا حياة، ولكن الله تعالى يسمي الدار الآخرة ﴿الحيوان﴾ على سبيل المبالغة لأن الإنسان إنما يكون حيًّا حقيقيًا في الآخرة فقط، ولأن الحياة في الآخرة هي الحياة الحقيقية. إذًا، فالمراد من قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ أن المعاش وثيق الصلة بالنهار، أما الليل فصلته بالمعاش ضعيفة، بحيث يجوز القول إن الله تعالى قد جعل النهار معاشًا.. أي خلق فيه من أسباب المعاش ما لا يتيسر في أي وقت آخر. هذا إذا اعتبرنا ﴿معاشًا﴾ مفعولاً به، أما إذا اعتبرناه مفعولاً فيه فيكون المعنى أن النهار سبب للمعاش.

والمعاش يعني مجرد الحياة، ولكنه يعني عادة الحياة الحيوانية التي تتعلق بالأكل والشرب فقط.

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أنه تأتي على الشعوب فترة الظلمة في بعض الأحيان، مثلما تخيم ظلمة الليل على العالم بعد النهار.

لقد بينتُ من قبل أن هذه السورة تتحدث عن قضايا ثلاث وهي البعث بعد الموت وغلبة القرآن وغلبة الإسلام، ونظرًا إلى معنى القيامة فقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ يعني أنه تعالى خلق الليل في العالم المادي لستر عيوبكم، إذ لم تكونوا قادرين على التمتع بالنهار دائمًا، فكان لزامًا أن تأتي عليكم فترة الليل لتستعيدوا قواكم للتمتع بالنهار من جديد، كذلك الحال في العالم الروحاني، فكما أن الله تعالى قد جعل لكم الليل لباسًا والنوم سباتًا، كذلك خلق هذه الدنيا – التي هي بمثابة الليل والسبات بالمقارنة مع الآخرة – لتتزوّدوا هنا بقوى جديدة تمكّنكم من رؤية الله تعالى في الآخرة. فكما أنه لا بد من الليل قبل النهار، كذلك لا بد من

عالم آخر من أجل رقيكم. فينبغي أن تتزودوا خلال العيش في هذا العالم بالقوى المناسبة للحياة الآخرة حتى تتأهلوا لرؤية الله تعالى هناك.

أما نظرًا إلى موضوع غلبة القرآن أو غلبة الإسلام، فالمراد أنكم كقوم كنتم نيامًا، ولكن الله تعالى كان يزودكم في فترة نومكم نفسها بقوى جديدة. علمًا أن الله تعالى كلما أنـــزل وحيه أنـــزله في قوم قد صاروا أذلّةً وأمواتًا، وذلك ليزوّدهم الوحي بقوى جديدة فيهبّوا ويصبحوا غالبين على العالم مرة أخرى. ولذلك نجد أن الله تعالى كلما أنـــزل وحيه في قوم أخذت قواهم في النماء والتطور، فينتشرون ويزدهرون في العالم نتيجة هذه القوى. خذوا بعثة النبي ﷺ مثلاً. كان العرب عندها أمة حقيرة ميتة منذ قرون و لم تكن لهم غلبة في أي مكان، كما لم تكن فيهم أية آثار للتقدم والرقي، وكانوا يعيشون خاملين ومنعزلين عن العالم. ولا شك أنه لما نـــزل فيهم القرآن الكريم قاموا يعارضونه ويسعون للقضاء على الإسلام، ولكن كانت في قلوبهم حسرة بأن كل أمة في العالم قد ازدهرت وأن كل شعب قد نال الغلبة، ولكنا لا نـــزال متخلفين. كانت في قلوبهم أمنية أن يتقدموا ويزدهروا وينال شعبهم العز والرفعة في العالم. والحق أن هذه الأمنية قد ساعدتهم كثيرًا فيما نالوه بعد إسلامهم من تقدم وازدهار. فثبت أن الله تعالى كلما أنـــزل وحيه أنـــزله في قوم كانوا قد ظلوا أمواتًا لأحقاب.

ونرى في هذا العصر أيضًا أن الله تعالى قد بعث المسيح الموعود عليه السلام في بلاد الهند التي كان أهلها يعيشون كالعبيد من زمن طويل، وكانوا يتمنون التقدم والازدهار. لا شك أن أهلها يعارضون الأحمدية اليوم كما هبّ العرب لمعارضة الإسلام في البداية، ولكنهم سيدركون أن الأحمدية هي السبيل لرقيّهم، وعندها ستتولد فيهم الصحوة فجأة، فيستعدّون لتقديم أي تضحية في هذا السبيل.

كما أن الله تعالى قد أشار بقوله ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ إلى أن النهار – لا الليل – هو الدليل على الحياة في الحقيقة. وهناك حكمة بالغة تكمن في هذا التعبير، وهي أن الناس عادةً يرون العيشَ في شتى أسباب الراحة والمتعة، ولكن الله تعالى يعلن هنا أن ما ترونه عيشًا ليس بعيش وإنما هو سبات. تظنون أن التمتع بأنواع الملذات من

أكل وشرب وسياحة هو العيش، مع أن فترة العيش الحقيقي إنما هي فترة بعثة النبي التي هي زمن العمل الحقيقي والعزة الحقيقة، أما التمتع بالأكل والشرب وغيرها من أسباب الراحة واللذة فهو ليس بعيش وإنما هو نوم وسبات. وكأن ما تعتبرونه عيشًا هو زمن سباتكم، وأن ما تعتبرونه زمن الشدائد هو زمن عيشكم الحقيقي. فكما أن الإنسان يعمل وينشط بالنهار ويستريح بالليل، كذلك يسمى وقت العمل عيشًا ووقت الراحة ليلاً. فكأن الله تعالى يقول للناس مستغربًا: كيف تسمون زمن الراحة والسكون عيشًا مع أن وقت العيش إنما هو ذلك الذي تعمل فيه قوى الإنسان وتنشط، وهو وقت النهار لا وقت الليل. والحق أن زمن العيش ليس إلا حين يتمتع القوم بروح التضحية، وتُرى في كل فرد منهم صحوة، ويشعر الجميع أن سر النجاح يكمن في التضحية بالنفس والنفيس في سبيل الله تعالى؛ ذلك لأن الحياة اسم للحركة لا للسكون؛ فما ترونه عيشًا هو سكون وعلامة للهلاك، وما ترونه شدة ومحنة هو العيش. إنكم تعتبرون حياة الراحة والترف عيشًا، ولكنه ليس عيشًا بل هو سبات يغشاكم، أما الذي لا تعدّونه عيشًا فهو العيش بعينه. فكأن الله تعالى قد صحح بهذه الكلمة خطأ شائعًا بين الناس، وبيَّن أن العيش اسم للحركة حيث يتحرك المرء وينشط وقت النهار، ولكنكم تسمون عدم الحركة عيشًا، مع أنه ليس بعيش وإنما هو تعطُّل حواسكم.

وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٣﴾

شرح الكلمات:

شدادًا: الشداد والأشدّاء مفردها شديد، ومن معاني الشديد: الشجاعُ؛ البخيلُ؛ الأَسدُ؛ القويُّ – ومثاله في القرآن الكريم قول الله تعالى عن الصحابة: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ – الرفيعُ؛ الوثيقُ. (الأقرب)

التفسير: ما هي هذه السبْع الشِداد؟ إنها السماوات لأن الله تعالى قد استعمل كلمة "السبْع" عن السماوات في أماكن أخرى من القرآن الكريم. فقوله تعالى ﴿وَبَنَيْنَا

فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ يعني أننا خلقنا فوقكم سبع سماوات مادية وروحانية متينة لا زعزعة فيها، بل يعمل فيها قانون محكم لا يتعطل أبدًا، ولذلك لا يحدث في نظام الكون خلل ولا فتور.

أما لو أخذنا كلمة ﴿شدادًا﴾ بمعنى رِفاعًا فالمراد أننا قد خلقنا فوقكم نظامًا رفيعًا لا نهاية لرفعته.

كما يمكن تفسير كلمة ﴿شدادًا﴾ بمعنى وثيقة، والمراد أن هذا النظام المدهش الذي خلقناه لا تغير فيه؛ حيث يجري فيه هذا القانون على وتيرة واحدة. علمًا أن هناك فرقًا بين عدم انفكاك الشيء وعمله بطريقة واحدة، ذلك لأن عدم انفكاكه يدل على بقائه واستمراره، أما عمله بطريقة واحدة فيدل على عدم وقوع أي تغيُّر فيه. فمثلاً نجد بعض الناس لا يسير على وتيرة واحدة، بل يقول اليوم شيئًا ويقول غدًا عكس ذلك، فلا يمكن أن نصفه بالسير على وتيرة واحدة، ولكن السبْع الشِداد التي خلقها الله تعالى تتصف بالمزايا الثلاث بأنها قوية لا تنفك، ورفيعة واسعة، ووثيقة أي لا تغيُّر فيها.

لقد أشار الله تعالى هنا بقوله ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ إلى أن هذه المزايا الثلاث التي توجد في النظام السماوي لدليل على أن وراء خلق الكون غاية عظمى. فالذي يزعم أن الله تعالى خلق الإنسان وجعل فوقه نظامًا هائلاً محكمًا دونما هدف إنما يعتبر فعل الله عبثًا، ويقول الله تعالى له لم لا تتدبر في هذا النظام المدهش الرفيع الواسع الذي لا انفصام له، والذي يجري بطريقة واحدة بدون تغيُّرٍ وخللٍ، والذي يصيب العلماء (Scientist) بالدهشة والذهول حين يفكرون فيه وتتقاصر أفهامهم عن إدراك سعته رغم ما حققوه من تقدم علمي مدهش. فعليك بإعمال الفكر في هذا النظام الفلكي واسأل نفسك هل من المعقول أن يُخلَق هذا النظام الواسع من أجل هذا العالَم ولهذا المخلوق الذي لا غاية لخلقه، بل يفنى بعد حياة قصيرة ويصير ترابًا. إن هذا النظام الهائل نفسه لبرهانٌ على أن لخلق الإنسان غاية عظيمة، وإلا لزم أن يُعتبر هذا النظام الهائل المدهش لغوًا وعبثًا.

إذًا، فقد قدم الله تعالى نظام السماوات برهانًا على البعث بعد الموت، مبيّنًا أن خلق هذا النظام الحكيم المدهش يدل على أن الإنسان لم يُخلق ليأكل ويشرب أيامًا ثم يفنى، بل قد خُلق لهدف أسمى من ذلك.

أما نظرًا إلى موضوع صدق القرآن الكريم، فالمراد أن الله تعالى يدعو الناس هنا إلى التدبر في فطرتهم، ويقول ألا ترون أنه توجد في قلوبكم رغبة شديدة في التحلّي بالأخلاق السامية والترقي في الخير - بالإضافة إلى رغبتكم في الأكل والشرب - وتتمنون بلوغ المراتب الروحانية العالية. هل هذه الرغبة والأمنية بدون سبب؟ هل يقال إن الله تعالى خلق الأسباب كلها لتحقيق رغباتكم المادية - التي هي أدنى - ولم يخلق شيئًا لتحقيق ما خلق فيكم من رغبات روحانية هي أسمى من الأماني المادية؟ وفي هذه الحالة سيُعتبر قوله تعالى ﴿سبعًا شدادًا﴾ بمعنى المدارج السبع الروحانية المذكورة في سورة "المؤمنون" حيث بين الله تعالى أن المؤمنين لا يزالون في الرقي الروحاني حتى يحوزوا هذه المراتب السبع.

وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٤﴾

شرح الكلمات:

سراجًا: السراج معروف وجمعُه سُرُجٌ، والسراج أيضًا الشمس لأنها سراج النهار. (الأقرب)

وهّاجًا: وهَجت النارُ والشمسُ وَهْجًا ووَهَجانًا: اتّقدتْ. والوهّاج: الشديدُ الوَهَج. والوَهَجُ: حرُّ النار والشمسِ من بعيد. (الأقرب). فالمراد من قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ أننا جعلنا شمسًا يُحَسُّ حرُّها الشديد من بعيد. والملاحظ هنا أن الله تعالى لم يقل: "وجعلنا السراج وهّاجا"، بل قال: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾، ذلك لأن التنوين هنا يفيد التفخيم والمعنى أننا قد جعلنا شمسًا عظيمة من صفتها أنها وهّاجة.

وورد في المفردات: "الوَهَجُ: حصولُ الضوء والحرِّ من النار. وقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾.. أي مضيئًا. وتَوهَّجَ الجوهرُ: تلألأَ."

فالمعنى الثاني أننا جعلنا شمسًا صفتها الذاتية أنها شديدة الضوء.

التفسير: لقد بين الله تعالى بوصف الشمس وهّاجًا أن ضوءها وحرَّها ذاتيّان. القمر لا يمكن أن يسمى وهّاجًا لأنه لا يتّقد، إنما الشمس هي التي تتّقد كما تتّقد النار. لقد خلق الله تعالى في الشمس عنصر "الراديوم" (Radium)، وعندما تنجذب ذراتها إلى الداخل نتيجة قوة الجاذبية تُحدث ضوءًا وحرًّا كما تؤدي إلى اتقاد النار بشكل مستمر.

إن صفة كون الشمس وهّاجة لغنية عن البيان. تبعد الشمس عن الأرض قرابة تسعين مليون ميل (Lexicon Universal Encyclopedia: SUN)، ومع ذلك يصل حرها إلى الأرض، ويبلغ في الصيف حدًّا لا يقدر بعض الناس على احتماله ويموتون. لقد نُشر خبرٌ قبل أيام أن الخيول في "لاهور" تسقط خلال سيرها من شدة القيظ وتموت. كما ورد خبر من أمريكا أن عشرات الناس أصيبوا بالجنون من شدة الحر وأرادوا القفز من المساكن العالية. فثبت أن الله تعالى قد جعل الشمس بالفعل وهّاجة.. أي يصل حرّها من بعيد. إذًا، فقوله تعالى ﴿سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ إشارة إلى أمرين: أولهما: أن ضوء الشمس وحرّها ذاتيانِ، وثانيهما أن حرّها يُحَسّ من بعيد.

ومن المنافع الكثيرة للشمس أن حرّها وضوءها يمدّانِ الأرض بقوة الإنبات. علمًا أن حراثة الأرض لا تستهدف تليين تربتها فقط، بل تقليبها جيدًا أيضا، لأن بعض عناصر الأرض القادرة على الإنبات لا تعمل جيدًا إذا لم تتعرض للشمس مرة بعد أخرى، وبالتالي لا يكون الزرع جيدًا، ولكن إذا قلبت تربة الأرض جيدًا وتعرضت لأشعّة الشمس مرة أخرى اكتسبت قوة الإنماء من جديد؛ ولذلك تُصنَع اليوم محاريث تحرث الأرض عميقًا وتجعل أسفلها عاليها. باختصار إن الشمس شديدة التأثير على الزروع، وإذا لم يصل حرُّها وأشعّتُها إلى الأرض فقدت قوة الإنبات.

وسيُعتبر قوله تعالى ﴿سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ إشارةً إلى يوم القيامة من حيث إن الشمس تحترق بنفسها، والشيء الذي يحترق بنفسه يفنى في النهاية، ومن الواضح أن فناء الشمس سيُؤدي حتمًا إلى تغيُّر كبير في النظام الشمسي، ولذلك نرى أن كبار علماء الفلك أخذوا يؤمنون بالقيامة، إذ يقولون إن الشمس تنكمش باستمرار وستظل تنكمش حتى يأتي يوم تصبح فيه عديمة الجدوى للأرض، كما ستفنى معها الكواكب الأخرى في النظام الشمسي.

غير أن هؤلاء العلماء يرون أن حرارة الشمس لا تقل بل تزداد، وكلما انكمشت إلى مركزها ازدادت حرارةً. ويبدو من الحديث أيضًا أنه عندما تأتي القيامة تشتد حرارة الشمس.[٥]

أما نظرًا إلى موضوع غلبة النبي ﷺ فأرى أن قوله تعالى ﴿سراجًا وهّاجًا﴾ يتضمن إشارة خفية إلى هجرة النبي ﷺ، حيث قد نبه الله تعالى الكافرين من أهل مكة أن محمدًا (ﷺ) مقيم بين ظهرانيكم الآن وتتزعجون منه بحجة أنه يعيب آلهتكم وينشر دعوته بينكم، وينهاكم عن اتباع آبائكم، وتثيرون ضجّة كلما وعظكم ودعاكم إلى أعمال البر والتقوى، وتريدون طرده من بلدكم إن استطعتم لتتخلصوا منه، ولكنكم لا تعرفون أننا قد جعلناه لكم ﴿سراجًا وهّاجًا﴾، أي أنه سيذهب بعيدًا عنكم في يوم من الأيام، ومع ذلك لن تنجوا من حرّه، بل سيصلكم حرُّه بدون انقطاع وسيظل ضوؤه يبدّد الظلمة من أجل الأرواح السعيدة منكم.

أما نظرًا إلى موضوع غلبة القرآن الكريم فيعني قوله تعالى ﴿سراجًا وهّاجًا﴾ أن مركز القرآن سوف يصبح بعيدًا عنكم أيها الكافرون، ومع ذلك لن تكونوا في معزل عن تأثيره، بل سيصل تأثيره من بعيد أيضًا ويتغلب عليكم.

واعلم أن الله تعالى عندما يبعث نبيًا تحدث ضجة كبيرة في الدنيا ويتحلى المؤمنون بإخلاص مدهش فلا يرتاحون بالاً ما لم ينشروا دعوته ويبلّغوا الناس تعاليمه. إنهم

---

[٥] ورد في الحديث: "تدنو الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق." (زيادة الجامع الصغير للسيوطي)

يتعرضون للشتائم والسباب، ومع ذلك لا يتوقفون عن عملهم، بل لا يبرحون ملازمين لقومهم من أجل هدايتهم؛ فمثلا كنا نسمع في زمن المسيح الموعود عليه السلام من أفواه المعارضين جملة واحدة مرارًا بأن الأحمديين لا يمتنعون عن مطاردتنا. هذا ما يؤكده الله تعالى هنا ويقول ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾.. أي أننا قد جعلنا شمسًا لن يبرح حرُّها وضوؤها يصلانكم حتى من بعيد. هذا أولاً.

وثانيًا: تتضمن هذه الآية الإشارة إلى كون رسالة النبي ﷺ عالمية حيث بيّن الله تعالى أنكم سترون تعاليم محمد ﷺ تنتشر في العالم كله كما ينتشر ضوء الشمس في الدنيا كلها. تبكون على انتشار الإسلام في مكة، ولكنكم سترون بعد سنوات أن محمدًا ﷺ سيصبح ﴿سراجًا وهَاجًا﴾، فيغطي ضوؤه وجه المعمورة كلها.

وثالثًا: وفي وصول الحر والضوء من مكان بعيد إشارةٌ إلى امتداد فيوض النبي ﷺ من حيث الزمن أيضًا حيث بين الله تعالى أن زمن فيوضه ممتدّ جدًّا، وكما أن الشمس المادية ستظل تسد الحاجات المادية لأهل الدنيا إلى يوم القيامة كذلك ستمد الفيوض الروحانية العالم باستمرار إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٥﴾

شرح الكلمات:

المُعْصِرات: السحائب تعتصر بالمطر، واحدها مُعْصِرة. والمُعصِرة أيضًا الريح التي بها إعصار حيث يقال: أعصرتِ الريح: جاءت بالإعصار. (الأقرب)

ومع أن المُعصِرة قد تعني الرياح كما قال بعض الصحابة (الطبري)، ولكن المُعصِرة لغةً هي الريح التي فيها إعصار، وهذا المعنى لا ينطبق هنا تمامًا، فالمعنى الأكثر انطباقًا هنا هو السحائب التي تتحلب بالماء وتعتصر بالمطر. غير أن الإعصار لما كان يعني لغةً عصر الشيء واستخراج رحيقه، فيمكن إطلاق المعصرات على الرياح الشديدة التي تحوّل بخار الماء فيها ماءً. على كل حال. قد قال بعض الصحابة إن

﴿المعصرات﴾ هي الرياح، وقال بعضهم إنها السحب. وقد رجّح معظم المفسرين المعنى الأخير لأنه هذا هو معنى المعصرات لغةً. (الطبري، فتح البيان، ابن كثير)

ثَجَّاجًا: ثَجَّ الماءُ: سالَ. والثجّاج من المطر: السيّالُ الشديدُ الانصبابِ. (الأقرب)

التفسير: قد تحدث الله ﷻ من قبل عن الشمس، أما الآن فيتحدث عن السحب ليبين أن الأرض تتهيأ وتصبح نافعة بمساعدة هاتين الظاهرتين، بمعنى أنها إذا تهيأت بتأثير السراج الوهّاج، نزل عليها الماء من المعصرات، فأخذ نباتها في النماء.

كما بين الله تعالى هنا أن وهج الشمس كما يجهز الأرض للإنبات، كذلك يتسبب في تكوُّن السحب أيضًا. فما هي السحب يا ترى؟ إنها ليست إلا بخار مياه البحار والأنهار والجداول وغيرها التي ترتفع في الجو بحرارة الشمس، ثم تنـــزل إلى الأرض بعد أن تتحول ببرودة الجو ماءً سائلاً مرة أخرى. فإنك لو وضعت الماء على النار أخذ يتبخر كأنه دخان، ولو تركته وقتًا طويلاً تبخر كله، كذلك تتبخر مياه البحار وغيرها عندما تتعرض لحرارة الشمس، فترتفع وتجتمع في الجو شيئًا فشيئًا، ثم إن الرياح تأتي بها وتنـــزلها على الأرض على شكل مطر. إذًا، فإن السراج الوهاج نفسه يمهد الأرض من ناحية، ومن ناحية أخرى هو نفسه يُنـــزل الماء عليها من السماء؛ وهذا يعني أن الحر الذي يسبب ضيقًا للإنسان هو نفسه يهيئ له أسباب البرد والراحة أيضًا.

أما موضوع القيامة فتشير هذه الآية إليها من حيث إن الله تعالى قد جعل لكل شيء نتيجة. فإن الشمس تتّقد في السماء وتؤثّر على الأرض، والنتيجة أنها تصبح جاهزةً لإخراج نباتها وخضرتها، ثم إن الشمس نفسها ترفع بحرارتها بخار الماء، والنتيجة أنها تتحول إلى سحب تنـــزل على الأرض مطرًا. ومن المحال أن تكون سلسلة السبب والمسبِّب هذه المستمرّة في الكون من عند الله لغوًا وعبثًا، بل لا بد لها من نتيجة عظيمة، ولكنا لا نراها في هذه الدنيا، فلا بد لنا من الاعتراف بوجود حياة أخرى تظهر فيها نتائج هذه الأمور العظيمة حتى يقول الإنسان إن الله تعالى لم يخلق هذا الكون العظيم عبثًا.

أما القرآن الكريم والرسول ﷺ فتشير إليهما هذه الآية من حيث إن الله تعالى قد بين هنا أنكم تتضايقون مما يقوله لكم هذا الرسول والقرآن، وتقولون إن القرآن والرسول قد أحدثا في المجتمع شغبًا وفسادًا، ودفعا بالقوم إلى النـــزاع والحرب، وأدّيا إلى الفُرقة بين الأب وابنه، والأم وابنتها، والأخ وأخيه، والمرء وصاحبه؛ وكأنهم يقولون إن مجيئهما يُشعرنا بحرارة محرقة كما يشعر المرء بحرارة من الشمس، فيردّ الله عليهم بأنكم تشعرون اليوم بحرارة من قِبله بلا شك، ولكن هذه الحرارة نفسها ستتحول في النهاية إلى مطر رحمة. الحق أن الله تعالى ينمّي بهذه الحرارة مواهبكم ويزوّدكم بقوى جديدة، ولكنكم لا تشعرون بذلك، فتتأذون من هذا التغير الحاصل فيكم. ألا ترون أن الطبيب حين يجري العملية الجراحية يشعر المريض بأذى المِشرط، ولكن المِشرط نفسه يتسبب في شفائه وراحته، كذلك تشعرون من قِبل محمد ﷺ حرًّا وضيقًا وأذى، ولكن هذه الحرارة والوهج والضوء نفسها ستؤدي إلى راحتكم وسكينتكم. وكما أن حرارة الشمس تصعد بالسحب ثم تُمطرها على الأرض ماءً، كذلك ستصعد من قلوبكم سحائب الإيمان والعرفان في يوم من الأيام وتتدفق من صدوركم عيون العلم والمعرفة التي تنتشر مياهها في العالم كله.

لقد ذكّرتْني كلمةُ ﴿مَاءً ثَجّاجًا﴾ برؤيا رأيتُها قبل أيام حيث أُريتُ فيها القلب الإنساني على صورة تَنُّورٍ، ورأيت أن ماء العرفان الإلهي أخذ يتدفق منه ويغمر الدنيا. وعندما رأيت الماء يتدفق قلت إن هذا الماء سيظل يتدفق ويغمر الأرض حتى لن يبقى شبرٌ واحد منها لم يصله ماء العرفان الإلهي. وهذا هو المعنى الذي بيّنه الله تعالى في قوله ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾.. أي أن حرارة هذه الشمس الروحانية ستمهّد أرض قلوبكم، وحرارتها هي التي ستصعد بالبخار الذي سيتحول إلى سحب تمطر على أرض قلوبكم، وستغطي مياهه الدنيا كلها.

لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٦﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٧﴾

شرح الكلمات:

حَبًّا: الحَبُّ والحَبّة يقال في الحنطة والشعير ونحوهما من المطعومات. (المفردات)
وورد في اللسان: "الحبُّ: الزرعُ صغيرًا أو كبيرًا."

نَبَاتًا: النبتُ والنباتُ: ما يخرُج من الأرض من الناميات سواءٌ كان له ساقٌ كالشجر أو لم يكن له ساق كالنَجْم، لكن اختصَّ في التعارف مما لا ساق له، بل قد اختص عند العامة بما يأكله الحيوان. (المفردات)

جَنّات: جمعُ جَنّة وهي كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرضَ. (المفردات)

ألفافًا: جمعُ لفٍّ، واللِّفُّ: الصِّنفُ من الناس، تقول: ضدَّه ألفافٌ من الناس. واللِّفُّ: الروضةُ الملتفّةُ النباتِ والبستانُ المجتمعُ الشجر. (الأقرَب)

التفسير: عند نـــزول الماء من السماء تبدأ ظاهرةُ ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۞ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾.. أي تخرج من الأرض أنواع الحبوب والخضار والنباتات والبساتين الملتفة الشجر. فالله تعالى يبين هنا أن الشمس إذا طلعت عرفتم نتيجة طلوعها هذه الظاهرة، أعني أن الشمس تمدّ الأرض بأشعّتها وتمهّدها، كما تسحب ماءها إلى فوق؛ وهذا يعني أن الشمس تعطي الأرض شيئًا، وتأخذ منها شيئًا، ثم تعيده إليها ثانية على شكل مطر، وهكذا تصبح الشمس مصدر رحمة للناس وبركة، فتُزرَع الأرض، فتُنبت بساتين غنّاء وخضروات وحبوبًا وغيرها مما يحتاج إليه الناس. إنه لنظامٌ هائل خلَقه الله تعالى؛ حيث خلق الشمس ثم جعل الأرض صالحةً لتقبُّل أشعّتها رغم ما بينهما من بُعد يبلغ ملايين الأميال، وجعَل حرارة الشمس قادرة على حمل الماء من الأرض. ثم أجرى الرياح التي تُنـــزل من السحاب مطرًا، فتُنبت الأرض زرعًا وحبوبًا وبساتين وفواكه، وفي كل منها منافع للناس، بعضها ذو نفع قصير وبعضها ذو نفع طويل. فالغلال مثلاً يبدأ الإنسان في استهلاكها بمجرد أن تنبت، ثم يزرعها ثانية ثم يستهلكها مرة أخرى. ولكن هناك أشياء أخرى لا يحتاج المرء إلى زرعها مرارًا ومثالها النباتات المثمرة التي تقتات عليها المواشي كما يأكل الناس من ثمارها سنوات وسنوات. ثم هناك أشياء تنفع الناس مدة أطول من ذلك

كالبساتين التي تنفع الناس بثمارها قرنًا أو قرنين بل ثلاثة قرون أحيانًا. يذكّر الله تعالى هنا عباده بهذه النعم ويدعوهم إلى التدبر فيها ليروا ما إذا كان تعالى قد خلقها لغوًا وعبثًا. الحق أن التدبر سيكشف عليهم أن من المحال أن يكون هذا الكون الهائل قد خُلق لغوًا وعبثًا، بل لا بد أن الله تعالى قد خلقه لغاية ما، ولا بد أن ثمة هدفًا عظيمًا أراده الله تعالى بخلق هذا النظام الواسع الهائل، ولا يجوز القول إن الإنسان قد خُلق عبثًا وليس وراء خلقه هدف ولا غاية.

أما إذا فسّرنا هذه الآية بمعنى روحاني، فالمراد أن محمدًا ﷺ والقرآن الكريم كلاهما سراج وهّاج تستاءون اليوم من حرّه الشديد وضوئه المبهر، ولكن هذا الحرّ والضوء نفسهما سيعملان عمل السحاب والضوء لتطهير قلوبكم مما فيها من خبث وفساد. ماذا تعمل الشمس يا ترى؟ إنها تبخّر الماء العكر الفاسد إلى السماء ثم ترسله إلى الأرض ماءً مصفى ثانية، كما أن ضوءها يقتل أنواع السموم وتزود شتى الأشياء بطاقات جديدة. لا شك أن عندكم تعاليم إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء، ولكن ماء الوحي الموجود عندكم كله قد صار مكدّرًا آسنًا فاسدًا لا يصلح للشرب، وهذا السراج الوهاج الذي تستاءون من وهجه وحرّه سيحوّل مياه هذه "المستنقعات" بخارًا يصعد إلى السماء، ثم ينـــزل هذا البخار سحابًا يمطر على أراضي قلوبكم، فتتدفق منها العيون التي ستروي العالم؛ كما أن ضوء هذا السراج الوهّاج سيبدّد ظلمات قلوبكم ويهبكم نور البصيرة. وبتعبير آخر إن ماء الوحي الإلهي الذي ترفضونه الآن سيتدفق من قلوبكم تلقائيًا ويصبح ماء ثجاجًا يروي الدنيا، فتخرج به من أراضي قلوبكم حبوب وغلال وأعشاب وبساتين.. أي ستجنون منه فوائد عاجلة وفوائد طويلة المدى، أو المعنى أنكم ستأتون بمعارف تنفع العارفين كمعارف التصوف وعلوم القرآن الكريم، أو تظهر على أيديكم علوم مادية تنفع عامة الناس مثل العلوم والجغرافيا والرياضيات والهندسة وما إلى ذلك. ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾.. أي تنبت على أيديكم بساتين تنفع الناس زمنًا طويلاً، ومثاله علم الكتابة الذي قام المسلمون بتطويره ونشره في العالم.